الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة

كليـــة الآداب واللّغـــات

قسم الآداب واللغة العربية

اختصاص: أدب عربي

السنة: الثالثة ليسانس

الفوجان: 3 و4

الأستاذة: سامية سعيد عمّار

دروس الأدب الموريتي

السنة الجامعية : 2021 – 2022م

الموافق لـ 1442 – 1443 هـ

الدرس رقم (01)

مدخل: تعريف عام للتصوف

توطئة:

تشعّبت آراء العلماء في تعريف التصوف، إذ زادت أقوالهم في ماهيته على ألف قول مثلما يقول "أبو محمد بن عبد الله بن أسعد اليافعي"(798هـ) في كتابه (المحاسن الغالية).

ويقول "زكي مبارك" في كتابه (التصوف في الأدب والأخلاق) معلقا على هذه القضية، ومقترحا تعريفا للتصوف: «**وفي ذلك مخلص لمن يريد أن يقف عن معنى خاص، كأن يقول: التصوف هو كلّ عاطفة صادقة، متينة الأواصر، قوية الأصول، لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب**».

فالتصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يكمل الصدق، ويسود الإخلاص بحيث لا تستطيع النفس أن تنصرف عما آمنت به.

وعليه فإنّ التصوف يتمثل في صور كثيرة، فيكون في الحب ويكون في الولاء، ويكون في السياسة حين تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان.

أولا/ التصوف في الحب:

ومن شواهد التصوف في الحب قول جميل:

وَإِنِي لَأَرْضَى مِنْ بُثَينَةَ بِالـــــــــذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الوَاشِي لَقَرَّتْ بَلَابِلُهْ

بِـ "لَا"، وَبِـ أَنْ لَا أَسْتَطِيعُ وَبِالمُنَى وَبِالأَمَلِ المَرْجُوِّ خَابَ آمِلُهْ

وَبِالنَّظْرَةِ العَجْلَى، وَبِالحَوْلِ تَنْقَضِي أَوَاخِـــرُهُ لَا نَلْتَقِي، وَأَوَائِلُهْ

فهذا الزهد في الوصل تصوف، وإن لم يذكر صاحبه بين أسماء الصوفية.

وهل يمتري أحد في روح التصوف حين يقرأ هذا الشعر المنسوب لقيس بن الملوّح:

وأحبسُ عنكِ النفسَ، والنفسُ صبةٌ بذكراكِ، والممشى إليكِ قريبُ

مخافةَ أن يسعى الوشاة بظِنةٍ وأحرسكم أن يستريب مريبُ

وقوله:

لو جُزّ بالسيف رأسي في مودتكم

لمرّ يهوي سريعا نحوكم رأسي

ولو بُليَ تحت أطباق الثرى جسدي

لكنتُ أبلى وما قلبي لكم ناسي

أو يقبض الله روحي صار ذكركم

روحا أعيش به ما عشت في الناس

لو لا نسيم لذكراكم يـــــروّحني

لعدت محترقا من حـــرّ أنفاسي

ولكن هل معنى هذا أنّ كل محب صادق الحب يضاف إلى الصوفية؟

لا، فلو فعلنا ذلك لكان أكثر الشعراء من أرباب التصوف، وإنما نقصر هذا الوصف على من وقف قلبه عن هوى واحد، فالمجنون متصوف، والعباس بن الأحنف متصوف، لأنّ المجنون صوّرته الروايات رجلا لا يعرف في الدنيا غير ليلاه، والعباس يشهد شعره بأنه وقف حبه على "فوزٍ"، وشارف حدود الفناء في الحب حينما قال:

إن لم يكن للمرء بد من الردى

فأكرِم أسباب الردى سببُ الحب

ولو أنّ خلقا كاتم الحب قلبهُ،

لمُـــتّ، ولم يعلم بحبكمو قلبي

ثانيا/ التصوف في المودة والولاء والسياسة:

أما التصوف في المودّة فهو قريب من التصوف في الحب، ومن شواهده ما حدّث به "أبو محمد الزهري" قال: «**وكان لثعلب عزاء ببعض أهله، فتأخرت عنه لأنه خفي عني، ثم قصدته معتذرا، فقال: يا أبا محمد ما بك حاجة إلى أن تتكلف عذرا فإنّ الصديق لا يحاسب**».

والأمثلة كثيرة في هذا الصدد، فمن الصدق جاءت الصداقة لقيامها على رباط من العطف وثيق.

وشواهد التصوف في الولاء تجل عن الإحصاء، ويكفي أن نشير إلى أظهر ما وعى التاريخ، «**كان المتوكل عقد لولده المنتصر والمعز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المتنظر، ويقول له: «أنت تتمنى موتي وتنتظر وقتي! ودسّ المنتصر لأبيه من يقتله في مجلس الشراب، فقال البحتري يبكيه وكان في مجلسه ساعة القتل:**

وَمُغتَصَبٍ للقَتلِ لَم يُخشَ رَهـــــطُهُ

وَلَم تُحتَـــــــشَم أسبَابُهُ وَأوَاصِرُهُ

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السّيُوفُ حُشَـــاشَةً

تَجُودُ بها، والمَوتُ حُـــمرُ أظافرُهُ

أُدافعُ عَنهُ باليَدَينِ، ولَـــــــمْ يَكُنْ

لِيَثنِيَ الأعَادِي أعزَلُ اللّيلِ حاسِرُهْ

ولَوْ كَانَ سَيفي ساعةَ القتلِ في يدي

لَرَأى القاتلُ العَجلانُ كيفَ أُساوِرُهْ».

فما رأيكم في هذا الرثاء؟ لقد سبقنا إلى تقديره أبو العباس ثعلب حين قال في هذه القصيدة: «**ما قيلت هاشمية أحسن منها**».

ولا يمكن تقدير ما في هذا الولاء من التصوف إلاّ إذا تذكرنا الظروف التي قيلت فيها هذه القصيدة، فذاك خليفة قُتل، وكان ابنه هو القاتل، وهو الذي تولى الخلافة من بعده، والبحتري لم يكن سوى شاعرا يعيش على هامش الحياة، فلا صولة ولا جاه، ولا مال ولا أنصار فكيف يتفق له أن يقف هذا الموقف بلا قلب مؤزر بشجاعة الصوفية؟

إنّ أهم ثمرات التصوف هي الشجاعة، وهي التي خلقت من البحتري رجلا قويا في ذلك اليوم العصيب.

وكذلك يقال على من رثوا البرامكة•، ولم يبالوا بغضب الرشيد مثل سليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد، وقد قام يندب البرامكة على مسمع من الرشيد بهذا الشعر الصارخ:

أُصِيبتْ بساداتٍ كانوا عيونا بهم نسقى إذا انقطع الغمــامُ

• **البرامكة:** هي احدى الأسر التي يعود أصلها إلى بلْخٍ، كانوا في الأصل مجوسا فدخلوا الاسلام، وكان خالد بن برمك من كبار الدعاة إلى الخلافة العباسية، وقد اصطفاه الخليفة أبو العباس السفاح ليكون وزيرا له. وكانت أسرتهم غرة على حبين الدولة العباسية، لما لهم من الفضائل والمآثر، فيحى بن خالد البَرمكي كان المسؤول عن تربية الرشيد وزوجته مرضعته، وقد حافظ لهارون الرشيد على ولاية العهد عندما همّ موسى الهادي بخلع أخيه الرشيد....واستمر البرامكة في وجودهم في مركز صناعة القرار حتى كانت نهايتهم في عهد الخليفة هارون الرشيد في حدث تاريخي يسمى "نكبة البرامكة"، وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم في السبب الذي دفع الرشيد إلى التخلص منهم على الرغم من أعمالهم العظيمة. انتهت النكبة بمقتل جعفر بن يحي، وسجن البرامكة.

فقلتُ وفي الفؤاد ضريمُ نارٍ وللعبرات من عيني انسجام

على اللذات والدنيا جميعا ودولـــــــة آل برمَكٍ السلام

جزَعتُ عليكِ يا فضل بن يحي ومن يجزع عليكِ فلا يلام

أألهوا بعدكم وأقَرُ عيـــــنا عليّ اللهو بعدكم حــرامُ

ولنتذكر أنّ مثل هذا الشعر قيل في أوقات الشدائد، يوم كان الباكون على البرامكة معرضين للقتل، أليس هذا الولاء الصادق من شعب التصوف؟

وكان في الأندلس شاعر اسمه محمد بن عيسى، وهو المعروف بـ ابن اللّبانة، وهو شاعر كان منقطعا إلى المعتمد بن عبّاد، وله فيه مدائح، فلما أفل نجم المعتمد وخانته أيامه، وغدَر به زمانه، ظل ابن اللّبانة ملتزما بعهد الوفاء، وكان له مع أبناء أميره المغلوب نوادر تدل على غزارة المروءة، ونبل الطبع، ومن حديث ذلك أنه: «كان للمعتمد ولد يلقب بفخر الدولة، رشحه للملك بعده، وجعله ولي عهده، ولقّبه بالمؤيّد بنصر الله، فعاقته الفتنة عن مراده، وحالت الأقدار بينه وبين اصطراه وإيراده، فما برح بفخر الدولة تغير الأيام بعد الفتنة إلى أن اسلم نفسه في السوق وتعلم من الصنائع صنعة الصواغ

ومرّ ابن اللبانة بذلك الأمير الذي جنت عليه الليالي فحولته إلى صائغ ينفخ الفحم في دكتن صائغ، فتمثل ما كان عليه، وتفجع لما صار إليه، واندفع يبكيه بقصيدة عصماء، منها قوله:

لم يرحم الدهرُ فضلا أنت حاملهُ

من ليس يرحم ذلك الفضلَ لا رُحما

شقيقك الصبح إن أضحى بشارقةٍ

وأنـــت في ظُلمةٍ فالصبح قد ظَلُما».

أليس هذا الولاء من التصوف؟ وإلى من يرغب ابن اللّبانة حين يهدي مثل هذا الشعر الموجع؟ لقد ذهبت دولة ابن عبّاد، وأصبح ابنه طريدا شريدا لا يجد قوت يومه إلاّ عن طريق العمل المرهق لمن نشأ في قصور الملوك.

إنّ هذه النفحة من الولاء هي- بلا جدال- من أشرف ما تجود به النوازع الروحية.

وفي بعض المذاهب السياسية تصوف، فأصحاب هتلر هم اليوم صوفية، والصادقون من أنصار موسوليني صوفية، وأولئك وهؤلاء لهم أشباه في التاريخ الإسلامي، فالخوارج• في حقيقة الأمر سياسيون ولكنهم في صدقهم وصلوا إلى ابعد غايات التصوف، ولهم أخبار هي نهاية النهايات في الروحانية.

هل سمعتم بأخبار "مرداس بن أدية" وقد حبسه عبيد الله فيمن حبس من الخوارج؟

لقد رأى صاحب السجن شدة اجتهاد مرداس وحلاوة منطقه فقال له: إني لأرى لك مذهبا حسنا، وإني لأحب أن أوليك معروفا أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك أتدلج إليّ؟ قال: نعم، فكان يفعل ذلك به.. وقتل رجلا من الخوراج رجلا من الشُرط، فقال ابن زياد: ما أدري ما اصنع بهؤلاء، كلما أمرت رجلا بقتل رجلا منهم فتكوا بقاتله، لأقتلّن من في حبسي منهم، فأخرج السجّان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل، وأتى مرداسا الخبر، فلما استحر تهيأ للرجوع

• **الخوارج**: مصطلح تاريخي مقتبس من أحاديث تنسب إلى الرسول ﷺ، وقد أطلق مصطلح الخوارج على ثلاث مجموعات من المسلمين خلال فترات زمنية مختلفة: 1) معارضة سياسية تخرج على الحكام، 2) طائفة دينية منحرفة تفسر الدين بشكل مغلوط وتستبيح دماء المسلمين، 3) غلاة متشددون يكفرون المسلمين. والمقصود هنا الطائفة الأولى، وهي فرقة اسلامية نشأت في نهاية عهد الخليفة عثمان بن عفان، وبداية عهد الخليفة علي بن أبي طالب، نتيجة الخلافات السياسية التي بدأت في عهده، وهم يصرّون على الاختيار والبيعة في الحكم، مع محاسبة أمير المؤمنين على كل صغيرة، وعدم حاجة الأمة الاسلامية لخليفة زمن السلم، وقد أبادهم علي بن أبي طالب في موقعة النهروان.

فقال له أهله: اتق الله في نفسك إن رجعت قُتلت، فقال: ما كنت لألقى الله غادرا !فرجع إلى السجان فقال: إني قد علمت ما عزم عليه صاحبك، فقال: أعلمت ورجعت؟ ولكنه لم يقتل في ذلك الحين، وإنما في موقعة أخرى).

ثالثا/ الزهد في قلوب الأغنياء والفقراء والفاسقين والمتقين:

ليس الزهد أن تطيب نفسك عن مغانم قد تنال وقد لا تنال، وإنما الزهد أن تطيب نفسك عن مال تعمُر به خزائنك، ثم تجود به طائعا للفقراء والمعوزين، فلا ينبغي أن نصف المفلسين والعجزة بالزهد، إنّ الزهد أن تترك بعض ما تملك، والعفاف أن تكون عند القدرة مسيطرا على هواك.

والتصوف هو الصّدق في العواطف الدينية، فأبو نواس الفاجر الزنديق هو في بعض أطواره من الصوفية، فقد مرت به لحظات كان قلبه فيها أرق من الهواء، وأطهر من الماء، إنّ لأبي نواس شعارا في الندم هي أقوى وأصدق من كل ما نظّم أبو العتاهية في الزهد.

فالتصوف لا يكون إلاّ في النفس، وفي النفس عوالم كثيرة بعضها أخطر من بعض، ومن الخطأ أن نقف عند حدود الاصطلاح في عوالم لا تحدها رسوم ولا حدود. والهدف من هذا المدخل هو أن لا نقف عند حدود حرفية مصطلح التصوف.

رابعا/ الهدف من دراسة الأدب الصوفي:

إنّ الأدب الصوفي هو من مصادر التربية الخلقية الذي ينبغي أن يدرج في الأطوار التعليمية، لأنّ المتصوفة إنما سجّلوا أخلاقهم في نصوص وما يروى عنهم من أخبار.

والخلاصة أنّ التصوف ليس وقفا على أولئك الدراويش الذين يعيشون عيش التسول، ويتخذون شمائل الزهاد، صادقين أو كاذبين

إنما التصوف نزعة روحية يحسها الأغنياء كما يحسها الفقراء ويدركها الفاجر كما يدركها العفيف، وكم لفتة من لفتات الصدق تقع من رجل معروف بالطيش هي أقرب إلى التصوف والروحانية من أعمال كثير من المرائين الذين يلبسون مسوح الرهبان ويضمرون غرائز اللئام.

الدرس رقم (02)

التصوف (المفهوم والنشأة)

توطئة:

ليس من اليسير أن يتخذ الباحث منهجا واضحا ومستقرا لدراسة التصوف الإسلامي، فهو ازاء هذا التراث الضخم من أقوال الزهاد والصوفية وأشعارهم، وازاء الطرائق المتعددة التي نقلت هذا التراث ودرسته ليشعر حقا بالحيرة والاضطراب، ومنذ ظهور المؤلفات الأولى التي أرّخت للتصوف لم نجد اجماعا على الأصل الذي أخذت منه كلمة "التصوف"، ومع مرور الزمن كانت التكهنات عن أصل هذه الكلمة تزداد كثرة من قبل المعنيين بالتصوف الإسلامي من قبل المعنيين بالتصوف الاسلامي حتى اليوم.

أولا/ ضبط مفهوم التصوف:

- **الصوف:** لعلنا نستطيع أن نتبيّن من نسبة صوفي إلى الصوف وفي كون كلمة التصوف مصدرا للفعل "تصوّف" للدلالة على لبس الصوف بيانا للعلاقة بين التصوف والزهد بمعناه الواسع وحتى الآراء الكثيرة الأخرى التي قيلت عن أصل كلمة التصوف فإنّ أكثرها يرتبط في حقيقته بالزهد ونبذ الدنيا.
- **أهل الصّفة:** أطلق النبي صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه لقب "أهل الصفة". وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين الذين جاءوا المدينة ولا مأوى لهم بعد أن أجبرهم المشركون على ترك أموالهم وثرواتهم في مكة، حينما أرادوا الفرار بدينهم من طغيان المشركين. وكانت نسبتهم إلى صفة المسجد النبوي بالمدينة.(مؤخر المسجد الذي اتخذوه مأوى لهم). ونذكر من أهل الصفة: أبو هريرة، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي وأسماء بنت حارثة...وقد قنعوا بالقليل من الطعام والخشن من الثياب وانقطعوا إلى العبادة والعلم والمجاهدة...

- **الصفاء:** وقيل إنّ اللفظ مشتق من الفعل صفا تعبيرا عن صفاء سرائرهم، يقول البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صفا فصُوفي حتى لقبّ الصوفي

- **صوفة:** امتد الأمر إلى أبعد من ذلك فنسبوه إلى "صوفة"، وهو لقب لرجل جاهلي اسمه "الغوث بن مر" أصدقت به أمه على الكعبة عبدا لها، وغلّقت برأسه صوفة، وقيل: ألبسته ثوبا من صوف، وقد رأى الباحث "كامل الشيبي" بناء على ذلك أنّ النسبة جاءت من الصوف الذي علق برأس الغوث، هذا بوصفه ضأن الله، ثم ربط فكرة ضأن الله بفكرة ابراهيم النبي، ووصل أخيرا إلى اشتقاق الكلمة من الصوف ظاهريا، ومن فكرة التضحية بالذات باطنيا.

- **الصوفانة وصوفة القفا:** ليس هذا فحسب، بل نسبهم أبو نعيم الأصفهاني إلى (الصوفانة)، وهي ضرب من البقل، وإلى (صوفة القفا) وهي الشعرات النابتة عليه، وواضح ما تشير إليه هذه الأقوال إلى التواضع والزراية بالنفس والغض من الشأن، وهي أمور كان الصوفية يحبذون الاتصاف بها.

- **فيلاسوفا:** وذهب البيروني (ت 440ه) إلى أنّ الصوفية مأخوذة من الكلمة اليونانية "فيلاسوفا" أي : محب الحكمة، ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رايهم عرفوا باسمهم، وهذا الراي هو الذي دعا "فون هامر" – على ما يبدو- إلى القول بأنّ كلمة "تصوف" و"صوفية" مأخوذة من الكلمة اليونانية *Gymnosophists* جيمنوسوفيا، ومعناها "الحكماء العراة"، وهو اسم أطلقها اليونان على الهنود العراة الذين كانوا يقضون حياتهم في السياحة متأملين في الله. غير أنّ كلا من "نودلكه" و"ماسينيون" قد أكدا على أنّ الكلمة مشتقة من الصوف

وأنها كانت تطلق على زهاد المسلمين، وإنّ علينا أن نرفض ما عدا ذلك من الأقوال.

ويجمل بنا أن نشير إلى أنّ الصوفية كانوا يدعون "الفقراء" و"الجوعية".

إنّ الآراء السالفة جميعا لتؤكد الصلة التي لا تجحد بين التصوف والزهد، سواء كان ذلك الزهد الظاهر الذي يمكن أن نطلق عليه اسم التقشف، أم ذلك الزهد الذي يمزج الزهد بنزعة استبطانية تأملية، وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك بدقة إذ قال: «**أصل التصوف العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامة في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم التصوف**».

وظاهر هذا القول أنّ ابن خلدون قد أرسى التصوف في الأصل على أساسين، أحدهما روحي يقوم على العبادة والتأمل والزهد والآخر اجتماعي تمثل في فشو الاقبال على الدنيا والاعراض عن سيرة الرسول والصحابة والسلف.

ثانيا/ نشأة التصوف:

إذا كان التصوف مرتبطا بالزهد والتحلي بالأخلاق والانقطاع للعبادة فبإمكاننا القول بأنه نشأ نشأة اسلامية، حيث ألغى الإسلام صراحة أي امتيازات عرقية أو طبقية لمسلم على آخر، وجعل التقوى مقياس الأفضلية بين المسلمين : «**يا أيها الذين آمنوا إنّ خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**» (الحجرات: 49).

ولقد حدد الإسلام السجايا التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم والتي شاعت في القرآن والحديث، وكان الرسول صلى الله عليه

وسلم هو النموذج الكامل للمسلم المتواضع الزاهد الذي يؤثر غيره على نفسه.

وأنكر الإسلام على ذوي الأموال أن يكدسوها في خزائنهم على حين يتضور غيرهم جوعا: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾(التوبة: 34) فأصبح الكثير من أغنياء المسلمين يؤثرون اخوانهم الفقراء في أموالهم وطعامهم ولباسهم، ولا أدل على ذلك من تلك المؤاخاة الصادقة بين المهاجرين والأنصار، ليس ذلك فحسب بل إنّ الإسلام فرض ضريبة مالية على الأغنياء تلك هي الزكاة.

إلاّ أنّ كنوز العراق ومصر والشام قد قللت من ميول الزهد والتقشف، حيث رغبت الطبقات التي آلت إليها تلك الأموال أن تتخذ منها وسيلة للاستمتاع بالدنيا.

وبمجيء الأمويين إلى الحكم أحبطت نهائيا الجهود الدعية إلى اسلام لا طبقي ولا عرقي التي كان في طليعة دعاتها أبو ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب وأضرابهما.

وقد مثّل الحجاج دور الحاكم البعيد الصلة بالإسلام بما يفرضه على لمسلمين من خراج. وق بلغ الضعف بالمسلمين أن كانوا يعترفون بالكفر هربا من الموت.

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كان غيلان الدمشقي يتولى رد المظالم، وحين أراد يزيد بن عبد الملك أن يتبع سياسة الفاروق تصدى له هؤلاء المتاجرون بمصلحة الأمة، وأتوه بأربعين شيخا شهدوا له أنّ الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب، فكانت النتيجة أن أقبل على الظلم واتلاف المال والشرب...

وأمام هذا الوضع لم يجد المؤمنون بمثل الاسلام إلاّ أن يقاوموا فكان من أمارات هذه المقاومة الاعراض عن لبس الحرير، ولبسوا المادة المضادة له شعارا للتقوى واظهارا لما في أنفسهم من سخط وتمرد.

وقد قيّض للتصوف الإسلامي بحكم نزعته السلبية، وبحكم طبيعة السلطة الحاكمة أن يتحول شيئا فشيئا إلى حركة أسهمت بشكل ملموس في تخدير المجتمع الاسلمي وصرفه عن الهدافه الأساسية وظلت هذه النزعة تنمو في جنين التصوف حتى تحول بعد اعدام الحلاج إلى مجموعة من العاطلين الذين لا يرون الخروج على الولاة بالسيف ولو كانوا ظلمة، والذين استراحوا في ربطهم عن العمل والكدّ، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، هائمين مجذومين، بحيث غدا التصوف وسيلة ناجعة في صرف مجاميع غفيرة من الناس عما فيهم من واقع لا يمثل حقيقة الإسلام إلاّ تمثيلا شكليا زائفا.

كما مكّن التصوف الشعوب التي دخلت الإسلام أن تعبر عن نفسها، وقد تجلّ ذلك التعبير على أشده لدى الخراسانيين المعروفين بتعصبهم القومي، والذين رأوا في الفتح الإسلامي تحديا لأمجادهم القومية، واتخذوا من التصوف وسيلة للمقاومة.

أما التصوف الإسلامي الحقيقي فقد استلهمه المسلمون من القرآن والسنة، وقد تبيّن مما سبق أنّ التصوف الإسلامي ظاهرة انتجتها طبيعة المجتمع الإسلامي ذاته، لم تفرضها مؤثرات أجنبية طارئة عليه، ذلك أنّ تاريخ التصوف في الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه ومظهر من مظاهر هذا الدين وما أحاط به من ظروف وما دخل فيه من شعوب، مع أنّ الإسلام ليس دينا صوفيا، وما كان ليظهر فيه التصوف نفس الصورة التي بلغتنا لو لم يخرج من حدود السنة التي نشأ فيها.

الدرس رقم (03)

التصوّفُ والأدب

للتصوّف علاقةٌ وطيدة بالأدب نثرًا وشعرًا، ودليلنا على ذلك أنّ الجاحظ لما اهتمّ بالصوفية فقد لحظ فيهم شيئين: جودة الأدب وقوّة الاخلاق، ولذلك نراه يقول في مطلع كتاب "الزهد": «**نبدأ باسم الله وعونه بشيء من كلام النّساك في الزهد، وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم**»، فهو يرى في الكلام صورة غير الاخلاق.

ولم يقتصر الأمر على الجاحظ بل امتّد إلى آخرين مثل ابن قتيبة والمقرّي في كتابه نفح الطيب الّذي يسوق روايات كثيرة تدّل على هُيام المتصوّفة بالثقافة الادبية، وهذا برغم الحملة على الشعر ومعارضته للدين، مثلما يرى بعض الفقهاء، إلاّ أنّ الغزالي فصّل القول في المسألة حين قال: «**أما الشعر فكلامٌ حسنُه حسنٌ، وقبيحُه قبيحٌ**».

1) التصوّف في الاصطلاح الأدبي:

هو تلك التّجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السّالكُ إلى ملكوتِ الحضرة الإلهية والذّات الربّانية، من أجل اللّقاء بها وصلًا وعشقًا.

ويمكن القول إنّ التصوّف هو: «**محبة الله والفناء فيه والاتحاد به**».

ويُلاحظُ أنّ لكلّ متصوّف تعريفا خاصا للتصوّف، حسَب التجربة الصوفية التي يخوضها في حضرة الذات المعشوقة.

وإذا كان الفلاسفة يعتمدون على العقل والمنطق **نهجا** للوصول إلى الحقيقة، والفقهاءُ يستندون إلى الظاهر النّصي، فإنّ المتصوّفة يتكلّمون في معرفتهم على القلب والحدس الوجداني والعرفان اللّدني، متجاوزين بذلك العقل والحسّ نحو الباطن، لذا يعتبر التأويل من أهم الآليات الإجرائية لفهم الخطاب الديني والصوفي على حدٍّ سواءٍ.

ويقوم التصوّف على **موضوعات** بارزة هي: المجاهدات والغيبيّات والكرامات والشطحات.

ويستعير التصوّف **مصطلحاته** من عدّة معاجم كالمعجم الادبي والفلسفي والنحوي والصرفي والفقهي والأصولي والقرآني والنبوي والكيميائي....

2) مراحلُ التصوّف:

أ- مرحلة الزّهد: انطلق التصوّف الإسلامي مع مجموعة من الزّهاد والأتقياء والورعين الّذين كانوا يعتكفون في المساجدِ.

ب- مرحلة التصوّف السّني: لم يظهر التصوّف السّني إلاّ بعد مرحلة الزهد والتقشّف والإخلاص في الاعتكاف والتّخلي عن الدنيا واستشراف الآخرة، ويسمى بالتصوّف السّني لأنّه كان مبنيًّا على الشريعة الإسلامية، وأحكام الشّرع الربّاني، بمعنى أنّ المتصوّفة كانوا يستندون إلى الكتاب أوّلا فالسّنة النبويّة ثانيًا.

ومن أهمّ المتصوّفة السنيّين: الحسن البصري، المحاسبي(الذي أوجد أصول التصوّف والمجاهدة)، والقشيري (صاحب الرّسالة القشيرية)، والغزالي (صاحب كتاب المنقذ من الضّلال)، ورابعة

العدويّة (المعروفة بالمحبّة الإلهية)، والجنيد، وأبو نصر السّراج، وابن المبارك، ومالك بن دينار، وعبد القادر الجيلاني....

ج) مرحلة التصوّف الفلسفي: انتعش التصوّف الفلسفي إبّان العصر العباسي، في منتصف القرن الثالث الهجري، مع انتشار الفكر الفلسفي والاحتكاك بثقافات الشعوب المجاورة، وترجمة الفكر اليوناني من طرف علماء بيت الحكمة الذي بناه المأمون ببغداد، وبطبيعة الحال سيتأثر التصوّف الإسلامي بذلك.

نجد ذلك واضحا لدى "الحلاج" صاحب نظرية الحلول، والبسطامي صاحب نظرية الفناء، وابن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود، ناهيك عن شطحات غريبة في تصوّف ابن الفارض، والشريف الرضي، وجلال الدين الرومي، والعطّار، والشبلي، وذي النّون المصري، والسُهروردي.....

هذه النظريات الصوفية هي التي ستدفع المستشرقين لربط التصوّف الإسلامي بالمعتقدات المسيحية واليهودية والعقيدة البوذية والنرفانا الهندية والتصوّف الفارسي....

3) مراحل الأدب الصوفي:

أ- الأدب الصوفي القديم: يمكن تقسيم الأدب الصوفي القديم إلى ثلاثة أطوار:

- **الطورُ الأوّلُ:** يبدأ من ظهور الإسلام إلى أواسط القرن الثاني للهجرة، وكلّ ما بيت أيدينا منه اليوم طائفة كبيرة من الحِكَم والمواعظ الدينيّة والأخلاق تحثّ على كثير من الفضائل والزهد والتّقشف.

- **الطور الثاني:** يبدأ من أواسط القرن الثاني إلى القرن الرابع، وهنا يبدو اثر الإختلاط بين الجنس العربي والاجناس الأخرى، وفيه يظهر نوع جديد من الفلسفة بأثر نموّ علم الكلام.

والأدب الصوفي في طوريه الأوّل والثاني أغلبه نثر، وإن ظهر الشعر قليلا في طوره الثاني، وفي الطور الثاني هذا يبدأ تكوّن الاصطلاحات الصوفية والشطحات.

- الطور الثالثُ: يستمرّ حتى نهاية القرن السّاع وأواسط القرن الثامن، **وهو العصر الذّهبي للأدب الصوفي**، غنيٌّ في شعره، غنيٌّ في فلسفته، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، هو سلسٌ واضح، وإن غمُض أحيانًا.

هذا وقد تطوّر الأدب الصوفي نثرا وشعرا، وبلغ الأدب الصوفي ذُروته مع ابن عربي وابن فارض في الأدب العربي، وجلال الدّين الرّومي في الشعر الفارسي، ولم يظهر الشعر الصوفي إلاّ بعد شعر الزهد الذي اشتهر به كثيرا أبو العتاهية.

وقد ظهر الشعر الصوفي كذلك بعد شعر المديح النبوي وانتشار التنسك والورع والتقوى بين صفوف الأدباء والفقهاء والمحدثين كإبراهيم بن الادهم، وسفيان الثوري، وداود الطائي، ورابعة العدوية، والفضيل بن عيّاض، وشفيق البلخي....

هذا يعني أنّ الشعر الصوفي ظهر في البداية عند كبار الزّهاد والنسّاك، ثم أخذت ملامحه تتضح في النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري، فذو النّون المصري هو واضع سنن التصوّف كما يقول شوقي ضيف: «**منذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة**

في بيئات الصوفية، فقد كان السّابقون منهم لا ينظمون الشعر، بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من اشعار المحبين، وهم في ذلك يتواجدون وجدا لا يشبهه وجدٌ، أما منذ أبي الحسن النووي فإنّ صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبّرين به عن التياع قلوبهم في الحبّ آملين في الشهود».

ومن مميّزات الشعر الصوفي القديم: السموّ الروحي، واستكناه المعاني النفسيّة العميقة والخضوع لإرادة اللّه القويّة والإكثار من الخيال، واستعمال الرّمزية والشطحات الصوفية والجنوح نحو الإبهام والغموض.

ب) الأدب الصوفي الحديث:

أما في العصر الحديث فنجد نزوعًا نحو التّصوف عند الرومنسيين، كما نجد هذا النزوع عند المعاصرين الذين ستلهمون الشطحات الصوفية زيتخذونها كأقنعة، أو يستحضرون مقتبسات الصوفية والوّعاظ.

نجد ذلك عند أدونيس، والبيّاتي، وعبد الصبور، وخليل حاوي، فنجد شخصية النفري عند أدونيس، وشخصية السهروردي وفريد الدّين العطّار وجلال الدين الرومي عند عبد الوهاب البياتي، وشخصية الحلاّج عند صلاح عبد الصّبور في قصيدته مأساة الحلاج، وشخصية رابعة العدوية عند نازك الملائكة في قصيدتها الهجرة إلى الله....

ويمتاز الشعر الصوفي المعاصر باستعمال التناص بكثرة، وهناك من الشعراء من سقط في خاصية الإبهام والغموض، خاصة الشاعر

الحداثي أدونيس الذي حوّل كتاباته الشعرية إلى طلاسم من الصعب تفكيكها وفهمها وتأويلها.

- **خلاصة:**

لقد بيّنا أنّ الأدب الصوفي عرف عدة أطوار في القديم والحديث، ففي القديم ارتبط بشعر الزّهد والمتصوفة السنيّين، لينتقل بعد ذلك إلى المتصوّفة الغلاة أو المتصوّفة الفلاسفة، وصولا إلى القصيدة الرومنسية والشعر الحر المعاصر.

وإن كان بعض الباحثين لا يرون في استخدام المصطلحات الصوفية يعني انتماء ذلك الأدب إلى التصوّف.

توجيهات حول العمل التطبيقي

الموضوع: قدّم نبذة عن حياة أحد الصوفية المعروفين باتباع الخطوات الآتية:

1) نخصص ورقة واحدة لا أكثر من النوع المقوّى لكتابة البحث بشكل منظم.
2) نسجل في أعلى الورقة اسم الطالب ولقبه والسنة والفوج(في خانة بالجهة العلوية اليمنى).
3) نكتب عنوان البحث(اسم الصوفي ولقبه الذي عرف به بين الصوفية) بلون مخالف للون كتابة البحث، ويتوسط أعلى الصفحة. ونخصص لونا آخر لكتابة العناوين.
4) نتطرق في البداية إلى النقاط الآتية: (نسبه ومولده ونشأته وأرومته(جنسيته) ولقبه(ولمَ عُرف به) وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته...).
5) نقدم مقطوعة شعرية من شعره مضبوطة بالشكل الصحيح(الشكل يكون بلون مخالف).
6) نشرح باختصار مضمون القصيدة بالتطرق إلى بعض الاصطلاحات الصوفية الواردة فيها.
7) نتحدث عن كراماته(الأمور الخارقة التي عرف بها(المعجزة للنبي مثل الكرامة للولّي)).
8) نستشهد بما قيل عنه.
9) نضبط أسماء الأعلام ضبطا صحيحا.
10) نذكر مراجع البحث.
11) المرجع الأساسي: أحلى قصائد الصوفية لمجدي كامل (سهل التحميل).